

القصة

القصة العائرة بالعائرة المزدلفة
من محاسن القاصات والكتاب المصطفى

تقدم : احمد رشاد الشريف

التي يحملها روحه . سائر بأمل حركته
ويستقل التأثير بالتالي الى من يذاعها ،
طلعه المريض . ومن هذه الحالة ستكون
النتيجة على حساب انصافه . وقد
اذكر من لحظات ان روحه ذاعلة من
كل ما حولها . حتى من اللغة التي من
يديها ، ثم اكتشف ان ذحولها بدأ من
ساعة ركوبها العربة ، وربما كان قبل
ذلك بكثير . ليس في وسعه الآن ان
يتذكر . ان المصافة في مثل هذه الامور
لها تأثير خطير ايضا ، لا يقل في خطورته
عن تأثير الهرة التي تعرضت لها العربة
والتي ادخلته ، لئاما بروحه ، من قبل
ما حوله ، رؤية منظر الطريق وسعاع
حديث السائق . ومناعة ما جرى
داخل العربة .

كانت هناك سيدة اجبية تصاحبها
في العربة . ومن ساعة ركوبها وهو
يحاول تصيها ، ومع انه يتقن اللغة
العربية الا انه حتى من دحوته في
حديث معها لاكتشف فيه اضطرابه .
ثم حكاية امه المريض . والخوف من
العدوى ، وفي امكانه الآن ان يرسم
صورة لما سوف يحدث ا مشادة بينها
وبينه ، يتأزم بعدها الموقف ، لا يخفف
من ثورتها محاولته لتهدئتها بانارة
عاطفة الامومة في قلبها . فهو يعرف
هؤلاء الاحباب جيدا ، وتؤكد من معرفته
لهم بعد تجربته الاخرى في مرص امه ،
ولا يستبعد منها ان تلتفت وتوقف
الميلارة بعد ذلك ويصح السائق عليه
نفس الحماس الذي يتحدث به في
حضرته الآن ، وربما يطرده هو وروحته
وايته ويمضي بالمسيدة الاجبية الى قبة
المرتفع .

من خلال اللوح الزجاجي الذي
حددته فتحة الباعلة ، التي نظرة
يستكشف بها الخارج ، يحاولون ان يعرف
المصافة التي تظنها العربة ، والمصافة
الناية من الطريق ، لكنه على ما يبدو
احقق في هذه المحاولة ، وظل لبعمة
توان لا يفكر في شيء ، ولا ينطق بحرفه .
ولا يقوم بأي عمل على الإطلاق .

كان يعتقد ان العقل قوة هائلة
لا يستهان بها حتى لو احتاطت بالاسل
ظروف ناسبة كالتي احتاطت به في
الثلاثة ايام الماضية ، والان يرى هذه
القوة الهائلة تحتل ، وتسل حركتها
نعاما ، امام احاسه بالخوف ولهمته
على معرفة النتيجة .

لم يكن يتوقع ان ما حدث فعلا
يمكن ان يحدث بهذه الصورة ، وعلى هذا
البحر المفاجئ ، خصوصا وان حديث
السائق عن خبرته بالطريق ، يوحى
للسامع بلاطمشان ، كما انه لم يبدأ بعد
في ارتقاء المرتفع ، حيث مكان المستشفى .

وكان ممحبة خوفه ولهمته ان اللغة

و يدور بعد ذلك سيمها لقول للسائق
 « أما أكثر من ساعة . . . سنقطع
 بقية المسافة في أكثر من ساعة . . »
 لقد تأكد الآن من أن كل نوء سيتم
 فجأة ويكون مقدمات « بعض الطريقة
 الشائعة التي اخترت بها العربة - اشتد
 آخر من الخارج فجاء مع أن الساعة
 تعدت الخامسة بعد الظهر تقريبا ،
 وبعد تناول الفول برعورها البيضاء
 الصغيرة ، وقد كنتها صخرة حذيفة .
 وكروم الصب المتحاذلة على أمرائها
 من بعيد يدور حول حدود المدينة خلف
 السارد . وعندما أخذتها الدوحة قامت
 عند الاتق وأصبحت غير محدودة .
 والزمان قبل نحوها بسرعة مخيفة ،
 وغرغف مع الصخور لتخامر الطريق
 وأمام السيرة كان اليسى الأصغر .
 متى المستشفى يبدو على لغة المرتفع
 كشئ ناعه لا يستحق الانتباه ، وفي
 أوقات أخرى يحس تنافسه ويحطل
 من ذلك يتوارى من الأنظار .

المحاور في عبيه - وسحق بالفعل
 ما تحيله من لحظات -

أن المرض عاجم أنه معاء انما على
 غير انتظار ، ومن تأمله لذلك أصبح
 يرجح أنه كان يستمد في التعاف . وبضع
 الحطط وربب النتائج ، في اليوم الأول
 من أيام الإصابة امتنع الطفل كلية عن
 تناول الطعام ، وعندما حاول أن يتحدث
 المرض تقياً كل ما تناوله ، وأمس بدأت
 حرارته ترتفع وأعراض المرض تظهر عليه
 بشكل واضح ، فترات يتعرض فيها
 لرعشة قوية تصطك معها أسنانه ،
 تنتهي لحدود من حديد . وفكر في أن
 يحمل ابنه إلى أقرب طبيب ، طبيب
 أحس أشهر عدائه للوطنيين ، وفورده
 من مطرهم ، ومع ذلك لماذا لا يحرب
 صدق هذه الشائعة أو كذبا ، فسألا
 يتردد في طرق أي باب وهو في هذه
 الأزمة !

نصحه أحد قناؤه باختصار الوقت
 وتجنب الاسراج . والدعاب فورا إلى
 المستشفى الحكومي المتحولة خارج
 المدينة . لكنه كابر وأصر على أن يتوجه
 طفله إلى الطبيب الإحسي صيد أمس .
 كانت زوجته وصلت إلى حالة الدهول
 التام عن كل ما حولها ، والطفل هذا
 أخيراً أرغمت أعضائه كأنها أدركت حيث
 التحدى ومقاومة المرض ، وبدأ واضحا
 أنه دخل في مرحلة الخطر . ولغة الأب
 كثيرا ما تخرجه عن جادة الصواب
 ولدفعه إلى ارتكاب الجبايات . ومهما
 كان محطاً في تقدير الموقف ، ومتعباً
 لعدوده . فهو لا يستحق الطرد من
 العبادة مع ابنه المريض .

والداخل لم يكن هناك تعبير يذكر ،
 فلا الهمة المعاشة ولا الحر الذي انتشر
 في الحفر استظاما أن بلغنا النساء -
 السابق استأنف السير ، واستأنف معه
 حديثه الذي لا ينتهي من تراشه في
 القيادة وتبهرته في حين القصص بذلك .
 ومعرفته النامة بالطريق وكيفية صعود
 المرتفع حتى قمته .

والسدة الأخيرة لتظاهر بأنها تامل
 الطريق وهي في الحقيقة ترأب اللثة
 وتراقب دهول زوجته هنا ، وبعد
 ظل ستدرك اضطراب حركاته وتقرأ

بدا له الأمر فطبعها وعزها في البداية ،
لكنه استسلم للأمر الواقع وعاد في هدوء
إلى بيته ، ناديا على مكافئته .

وفي صباح هذا اليوم فكر في تعيد
تصيحته إصدعائه ، يفسد معنى الوقت
وتطور حالة الطفل من سوء إلى أسوأ ،
ثم يجد في نفسه القدرة على مواجهة
الموت ، كاد يستطع وهو يركب السيارة ،
ولم يلاحظ السيدة الأجنبية وهي تركب
مع زوجها ، لم ينتبه إليها إلا هو ينظر
عصوا إلى اللغة ، ثم تطورت الأمور بسرعة
بعد ذلك ، ولم يمد في وصفه أن يكتم
أنه بعد الآن ، وقوة احتماله معها كانت
كثيرة إلا أنها محدودة ، وفي نطاق
الإنسان العادي قد تكون مثل هذه
التجربة سهلة ، عندما تصاحبه مشكلات
تؤرقه وتضيق تفكيره . لكن الحال
يختلف إذا مرت نفس التجربة بأحد ، في
مثل ظروفه . صوت القيد المنطلق من
خوف المسافر يهدم أصغله ، الارتفاع
في درجة الحرارة يضاعف من حرارته ،
الرطوبة التي تسرى في جسم الصغير
تستغل إليه وهز كيانه . وأمام هذا كله
لم يجد بدا من الرجوع لفكرة إصدعائه
وضرورة تنفيذها في الحال . بعد دقائق
كانت السيارة الأجرة تنطلق بهم ،
ومعهم هذه السيدة الأجنبية حليج
مدته الجزائر

وصحبها تحدث للمرة الثانية مع
السائق :

« اعتقد أننا سنقطع بقية المسافة في
أقل من ساعة . اعتقد أننا لن نأخر
.. لا أحد يعرف وجهتها ولا السبيل
الذي يذهبها إلى أن نقصد هذا المكان ،

في مثل هذه الظروف وتحميل المسافر
التي هي في غنى عنها ، ومع أن في
إمكانه التعاضد معها بلعناتها إلا أنه لم يفكر
في تجربتها أو مجرد الرد عليها أن هي
بدأت بالنجدة . أما الدخول في حديث
معه فهو في نظره سذاجة لا جد لها ،
إن تجربة الطبيب الأجنبي ليست بعيدة
ولا يوجد ما يمنع من تكرارها . إن
اختلفت صورتها من الأولى فالنتيجة
واحدة ومعروفة .

التي نظرة سريعة على وجهها ،
فاكتشف انصرافها إلى تأمل اللغة .
والانطية الثقيلة التي تحيط بها - كانت
حرارة الحرق تلسل على داخل العريضة
وحولت اللغة إلى جحيم لا يطاق ، وفي
المرحلة الثانية رأى في عينها ظمأ خفيا ،
انضح مع طول التأمل ، وتكشف له عن
تجربة غريبة ، أنه نفس القلق الذي
يحصي به ، وإن كان لا يعرف مصدر
ظلمها ولا يستطيع التكهن به الآن .

هل يمكن أن تكون ظلمة على ظلمة من
الاعطية الثقيلة والجرح الحاقق الذي يملأ
المرحلة ؟ ألا فما سر هذا الإهمام الكبير
منها بتأمل اللغة ؟ وهل من المفقود أن
تكون عندها عاطفة الأمومة مثل زوجته ؟
تسهر مع طفلها المريض وتتحلى المراسي
ثم تصف في النهاية بالذهول .

وفي الحصار كان يقول ويقول
وأعراش القصب قد اجتمعت ثعبان ولكن
الصخور كانت قد امتلئت عن طريق
السيارة ومن الناحية الأخرى : ناحية
السيدة الأجنبية ، كان البحر يبدو في
فترات متقطعة ، ونهب نسبات خفيفة

ترطب من جو السيارة . وسـمـها للفرقة
الثالثة تقول للرائق بالفرنسية .

.. أنا شخصيا لا يهمني التأخير ولكن
يجب أن تسرع .. هناك ظروف تقتضي
أن تسرع ..

وكان في إمكان الناظر المدقق ان يرى
توضوح منظر القبة ، والدمى الاصغر
قوتها ، وان يقيس مدى الارتفاع الذي
يلوح له من بعيد ، وان كان يستهين به
فقطعا . وفي نفس الوقت يتبرق في نفسه
التساؤل من سر موقع المشفى في
هذا المكان وعوق هذا الموضع المرتفع
بالدلت ، هل هي العزلة المطلوبة للمرضى
حتى لا يتقل الصدوى أم هو الجو
المسمى اللانم في الاماكن المرتفعة ، وكان
يقبح ذهبه ويحاول تركيز أفكاره فيما
يقوله لهم عندما يصل الى هناك ، وكيف
يقنعهم بضرورة السرعة في مثل هذه
الأمور .

وعند ما جاءت الهزة الثانية لم يطبق
على صدارة خوف المفاجأة الاولى تكاد
تتأثر كثيرا بصوب العربة وهي تكاد
تتفكك ، وتنفصل أجزاؤها من بعضها ،
أمانه من الآن مطبات كثيرة ، لا اول لها
ولا آخر ، وفي كل مطب منها تحدث
الهزة ، وتتردى العربة في جوفها
كالصيد الضخم ، عندما يسقط في
حفرة اصدت له ، وفي كل هزة من
الهزات القادمة لابد ان يتحمل حزينا
من المصاب النفسية حقيقة ان وقع
المفاجأة قد انتهى وراح مع الهزة الاولى
والاعتقاد على الصدمات يخفف من
وعمها ، والتصاب المتوالية تخلق في
النفس نوعا من الاستسلام ، جعله

يتقبلها بهدوء ، ولكن احسانه بالتفلي
يتزايد باستمرار ، ان الصغير يحلوه
المرضى الآن يقاومه في براقة وسداحة
لا تنفق مع قوة الهاجم وتدائه وليس
في صالحه ان يتعرض لمثل هذه
الهزات .

اما السيدة الأجنبية فقد بدأ طلي
وجهها ارماع حقيقي وهي ترى اللغة
تهتز بين يدي زوجها وبكتف أمانها
وجه الطفل ، ينطق بحطوة حاله ،
والرائق استأنف السير بنشاط أكثر
من ذي قبل ، كأنما يريد ان يعد الأذهان
من المطب الذي تودت العربة فيه عد
قليل ، وحديثه الملل عاد أيضا بنفس
التدقيق والاستمرار ، كله يدور من
خبرته بالطريق وذرايته بكل شرفه ،
انه يعرف متى يستقيم ومتى ينحني
ومتى يتحرك ، ويعرف أيضا ان العربة
تطفت أكثر من نصف الطريق ، وعليه
الآن ان يدور دورة قصيرة ليحاذي
المرتفع ، ثم يستأنف السير بحاله ما
يقرب من نصف ساعة وفي نهاية ذلك
يكون قد وصل الى القبة ، الى المبنى
الاصفر الذي بدأ يتضح الآن بصورة
أكبر ويبدو مرتفعا أكثر من ذي قبل ،
وتظهر بوائده والتواءات المحطة بها .
اما زوجته فقد جلست في استسلام
المقبل للأمر الواقع الذي أجده طول
المقاومة . لقد تسببت المرض ثلاثة أيام
كاملة وصعدت أمانه في هناك ، وتلاشت
على صوت الفناء وارتفاع درجة الحرارة
والربادة في الرخنة ولكن ذلك كله لم
يسعها من محاربة السيدة الأجنبية
التي دخلت في حديث معها .

وفي الخارج كانت الشمس في طريقها

الى الغروب . ملا الخوف قلبها وامصر
 ما فيه من نصرة واحمرار ، وظل وراه
 صخرة باعته ، استعنتها المرتعشة هي
 الاخيرة كانت ترحف على الرمال
 انكسرت على وجهها بعد ان كانت
 منتصبة ، وبعد الغروب تنوارى خلف
 النلال في انتظار رحمة الظل ومن خلال
 هذا الخوف راحت ترسم لكل شيء
 صورة مبالغ فيها ، ابعد ما تكون عن
 الحقيقة ، ربما كانت نفس الحالة التي
 رسم بها صورة السيدة الاجنية ، ومع
 السمات الباردة التي هت من البحر
 بدا الطفل يتحرك وينشط كاسما لم
 يعرض او يتعرض لمحة قاسية كاذب
 تؤدي بحياته ، وبدأت السيدة الاجنة
 تعاون روحه في دفع الاعطية الثقيلة عنه
 حتى يسرع تماما وكانت عيناها
 تتألقان عمامي الامومة التي شك منه قليل
 في وجودها ، والطفل تعادى في حركته
 ومشاطه . ومن خلال دهشة راح
 يراقب كل ذلك ، يراقب السيدة
 الاجنية ويذكر مخاوفه منها من ساعة
 ركوبها السيارة ، ويراقب الصغير الذي
 اسبغها معها حركه العادية ، في رضاء
 بشويه القلق .

وجابت المرأة الثالثة معانة ابصار
 وعلى غير انتظار ، هزة قوية وعظيمة في
 نفس الوقت لأن المرأة بدأت ترتق
 الترفع فعلا وتلدور الى الناحية الغربية
 في مواجهة قرص الشمس ولم يكن

يلصق ان روحه الساكنة المجردة في
 مكانها سوف تصاب بفرع كهذا ، فرع
 عظيم كالما تعرض المرأة للمرة الاولى
 وليس للمرة الثانية . انطلقت صرخة
 توقفت بعدها السائق تماما عن الحركة
 وانقطع عن الحديث وكان الطفل يسقط
 من بين يديها ، نولا ان يداركنه السيدة
 الاجنية خوفا عليه من الفرع الذي
 سيطر على حركات روحه والصرخة
 التي انطلقت من معها .

اما هو فقد احس بأن الهواء انتزعت
 منه ما بقي من مخاوفه وقلقه وبدأ له
 ان الامور التي يحدث حوله عادية ،
 وليس فيها أي وجه للثغرة او الدهشة
 والسائق استأنف السير هذه المرة
 بحذر بعد ان سمع الصرخة ، لكنه اقلع
 عن حديثه المستمر ولزم الصمت . ولم
 ينطق الا عندما سألته السيدة الاجنية
 فأجاب بانفصام :

- رجع سامع على الأكثر . متصل
 الى القمة بعد رجع سامع .

ولاح له مبنى المستنقع وقد رآه
 عنه الاصفرار تقريبا وتشرب بلون
 رمادي ، لاح أكبر من ذي قبل ووضعت
 شقوق بسيطة في جدرانها تساقط منها
 الظلاء ، وعندما بدأ يفكر في كلام السائق
 هتف على الفور :

- القبة - القبة - لقد وصلنا
 اليها وانتهى من ذلك .